

مختصر

جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الجنبلي

أخضرة وعائق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهدي





﴿ الْحَدِيثُ الثَّانِي ﴾

■ عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ.

وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا؛ قَالَ: صَدَقْتَ! فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ.

قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ



الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ.

قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ!»!

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا.

قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ؛ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟!».

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ!

قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ؛ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.



﴿ الشَّرْحُ ﴾

هَذَا الْحَدِيثُ تَفَرَّدَ مُسْلِمٌ عَنِ الْبُخَارِيِّ بِإِخْرَاجِهِ، وَخَرَّجَاهُ فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ^(١).

وهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ جَدًّا، يَشْتَمَلُ عَلَى شَرْحِ الدِّينِ كُلِّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آخِرِهِ: «هَذَا جَبْرِيْلُ؛ أَتَاكُمْ يَعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، بَعْدَ أَنْ شَرَحَ دَرَجَةَ الْإِسْلَامِ، وَدَرَجَةَ الْإِيمَانِ، وَدَرَجَةَ الْإِحْسَانِ؛ فَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ دِينًا.

فَأَمَّا الْإِسْلَامُ: فَقَدْ فَسَّرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ: شَهَادَةُ الْأَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَهُوَ عَمَلُ اللِّسَانِ، ثُمَّ إِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحُجُّ الْبَيْتِ؛ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

(١) مع اختلافٍ في اللَّفْظِ.



وهي منقسمة إلى عملٍ بدنيٍّ: كالصَّلاةِ، والصَّومِ، وإلى عملٍ ماليٍّ: وهو: إيتاءُ الزَّكاةِ، وإلى ما هو مرَّكَّبٌ منهما: كالحجِّ؛ بالنسبةِ إلى البعيدِ عن مكَّةَ.

وإنَّما ذكرَ هاهنا أصولَ الإسلامِ التي ينبي الإسلامُ عليها، كما سيأتي في شرحِ ذلكِ في حديثِ ابنِ عُمَرَ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ»، في موضعه إن شاء اللهُ تعالى^(١).

* **وأما الإيمانُ:** فقد فسَّره النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديثِ: بالاعتقاداتِ الباطنة؛ فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

وقد ذكرَ اللهُ في كتابهِ الإيمانَ بهذهِ الأُصولِ الخمسةِ في مواضعَ، كقوله تعالى: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ

(١) وهو الحديثُ الثالثُ من هذا الكتابِ (ص ٢٩).



أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴿ [البقرة: ٢٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ ﴿
[البقرة: ١٧٧]، وَقَالَ -تعالى-: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ
مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ [البقرة: ٣-٤].

والإيمان بالرُّسُلِ: يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به
من الملائكة، والأنبياء، والكتب، والبعث، والقدر، وغير
ذلك من تفاصيل ما أخبروا به من صفات الله، وصفات
اليوم الآخر: كالميزان، والصراط، والجنة، والنار.

وقد أدخل في الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره؛ ولأجل
هذه الكلمة روى ابن عمر هذا الحديث محتجاً به على من
أنكر القدر، وزعم أن الأمر أنف -يعني: أنه مستأنف لم يسبق
به سابق قدر من الله **جَلَّ جَلَالُهُ-**، وقد غلظ ابن عمر عليهم، وتبرأ
منهم، وأخبر أنه لا تقبل منهم أعمالهم بدون الإيمان بالقدر.



فإن قيل: فقد فرّق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في هذا الحديث - بين الإسلام والإيمان؛ وجعل الأعمال كلها من الإسلام، لا من الإيمان، وقد أنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً.

قيل: الأمر على ما ذكرت؛ وقد دلّ على دخول الأعمال في الإيمان: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿ [الأنفال: ٢ - ٤].

وفي «الصحيحين» عن ابن عباسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ فِدَ عَبْدُ الْقَيْسِ: «أمرُكم بأربع: الإيمان بالله؛ وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم» (١).

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣)؛ ومسلم (١٧).



أَمَّا وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ النُّصُوصِ، وَبَيْنَ حَدِيثِ سِوَالِ
جَبْرِيلَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَتَفْرِيقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَإِدْخَالَ الْأَعْمَالِ فِي مُسَمَّى الْإِسْلَامِ دُونَ مُسَمَّى الْإِيمَانِ؛
فَإِنَّهُ يَتَّضِحُّ بِتَقْرِيرِ أَصْلِ؛ هُوَ أَنَّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا يَكُونُ شَامِلًا
لِمُسَمَّيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ عِنْدَ إِفْرَادِهِ وَإِطْلَاقِهِ، فَإِذَا قُرِنَ ذَلِكَ الْاسْمُ
بِغَيْرِهِ صَارَ دَالًّا عَلَى بَعْضِ تِلْكَ الْمُسَمَّيَاتِ، وَالْاسْمُ الْمَقْرُونُ
بِهِ دَالًّا عَلَى بَاقِيهَا؛ وَهَذَا كَاسْمِ: (الْفَقِيرِ) وَ(الْمَسْكِينِ)؛ فَإِذَا
أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا؛ دَخَلَ فِيهِ كُلُّ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ، فَإِذَا قُرِنَ أَحَدُهُمَا
بِالْآخِرِ دَلَّ أَحَدُ الْاسْمَيْنِ عَلَى بَعْضِ أَنْوَاعِ ذَوِي الْحَاجَاتِ،
وَالْآخَرُ عَلَى بَاقِيهَا.

فَهَكَذَا اسْمُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ؛ إِذَا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا دَخَلَ فِيهِ
الْآخَرُ، فَإِذَا قُرِنَ بَيْنَهُمَا، دَلَّ أَحَدُهُمَا عَلَى بَعْضِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ
بِانْفِرَادِهِ، وَدَلَّ الْآخَرُ عَلَى الْبَاقِي.



وبهذا التفصيل يظهر التحقيق في مسألة الإيمان والإسلام،
فيقال: إذا أُفرد كلٌّ من الإسلام والإيمان بالذكر؛ - فلا فرق
بينهما حينئذٍ -، وإن قرن بين الاسمين؛ كان بينهما فرق^(١).

* قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تفسير الإحسان: «أَنْ تَعْبَدَ اللهُ
كَأَنَّكَ تَرَاهُ»:

يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة؛ وهي:
استحضار قربهِ، وأنه بين يديه كأنه يراه؛ وذلك يوجب
الخشية، والخوف، والهيبة، والتعظيم، ويوجب أيضا: النصح
في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها.

* وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»:

قيل: إنه تعليل للأول؛ فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله في

(١) وهذا هو أقرب الأقوال في المسألة، وأشبهها بالنصوص، والله أعلم. قاله
المصنف رَحِمَهُ اللهُ في شرحه النفيس «فتح الباري شرح صحيح البخاري»
(١/١٢٠).



العبادة، واستحضار قُربِهِ من عِبْدِهِ حَتَّى كَأَنَّ العَبْدَ يَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ: بِإِيمَانِهِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، وَيَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ.

وقيل: بل هو إشارة إلى أن مَنْ شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ؛ فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه؛ فليستحي من نظره إليه؛ كما قال بعضهم: «اتَّقِ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ أَهْوَنَ النَّاطِرِينَ إِلَيْكَ».

وقال بعضهم: «خَفِ اللَّهَ عَلَى قَدْرِ قَدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاسْتَحْيِ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ».

قالت بعض العارفات من السلف: «مَنْ عَمَلَ لِلَّهِ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ فَهُوَ عَارِفٌ، وَمَنْ عَمَلَ عَلَى مُشَاهَدَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ فَهُوَ مُخْلِصٌ»؛ فَأَشَارَتْ إِلَى الْمَقَامَيْنِ اللَّذَيْنِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمَا:

- **أحدهما:** مقام الإخلاص؛ وهو: أَنْ يَعْمَلَ العَبْدُ عَلَى اسْتِحْضَارِ مُشَاهَدَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ، وَقُرْبِهِ مِنْهُ؛ فَإِذَا اسْتَحْضَرَ العَبْدُ هَذَا فِي عَمَلِهِ، وَعَمَلَ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ



مخلص لله؛ لأنَّ استحضارَهُ ذلكَ في عملِهِ يمنعهُ من
الالتفاتِ إلى غيرِ الله، وإرادتِهِ بالعملِ.

- **والثَّاني:** مقام المشاهدة؛ وهو: أن يعملَ العبدُ على مُقتضى
مشاهدتِهِ لله تعالى بقلبه؛ وهو أن يتنورَ القلبُ بالإيمانِ،
وتنفذَ البصيرةُ في العرفانِ؛ حتى يصيرَ الغيبُ كالعيانِ.

وهذا هو حقيقةُ مقام الإحسانِ المشارِ إليه في حديثِ
جبريلَ **عليه السَّلامُ**، ويتفاوتُ أهلُ هذا المقامِ فيه؛ بحسبِ قُوَّةِ
نفوذِ البصائرِ.

وقد فسَّرَ طائفةٌ من العلماءِ (المثل الأعلى)، المذكورَ في
قوله **جَلَّ جَلالُهُ**: ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الروم:
٢٧] بهذا المعنى، ومثله قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ [النور: ٣٥]؛ والمرادُ:
«مِثْلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ»؛ كذا قاله: **أَبِي بِنُ كَعْبٍ**، وغيره
من السَّلفِ.



* قول جبريل: «أخبرني عن الساعة»؛ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»:

يَعْنِي: أَنَّ عِلْمَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ فِي وَقْتِ السَّاعَةِ سَوَاءٌ، وَهَذَا
إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهَا.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»^(١)، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ؛ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ»؛
ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾
الآيَةَ [لقمان: ٣٤].

* قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا»:

يَعْنِي: عَنْ عَلَامَاتِهَا؛ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى اقْتِرَابِهَا.

* وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْسَّاعَةِ عَلَامَتَيْنِ:

– الْأُولَى: «أَنَّ تَلَدَ الْأُمَّةِ رَبَّتَهَا»:

(١) بَرِّقِم (٤٧٧٨).



والمراد بـ(رَبَّتْهَا): سَيِّدْتُهَا وَمَالِكْتُهَا؛ وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى فَتْحِ الْبِلَادِ، وَكَثْرَةِ جَلْبِ الرَّقِيقِ؛ حَتَّى تَكْثُرَ السَّرَارِي، وَيَكْثُرَ أَوْلَادُهُنَّ؛ فَتَكُونُ الْأُمُّ رَقِيقَةً لِسَيِّدِهَا، وَأَوْلَادُهَا مِنْهَا بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَإِنَّ وَلَدَ السَّيِّدِ بِمَنْزِلَةِ السَّيِّدِ؛ فَيَصِيرُ وَلَدُ الْأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ رَبِّهَا وَسَيِّدِهَا.

- العلامة الثانية: «أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ؛ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»:

(العالة): الفقراء؛ كقولهِ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٨)

[الضحى: ٨].

والمراد: أَنَّ أَسْفَلَ النَّاسِ يَصِيرُونَ رُؤْسَاءَهُمْ، وَتَكْثُرُ أَمْوَالُهُمْ؛ حَتَّى يَتَبَاهُونَ بِطُولِ الْبُنْيَانِ، وَزَخْرَفَتِهِ وَإِتْقَانِهِ.

ومضمون ما ذَكَرَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَرْجَعُ:

إِلَى أَنَّ الْأُمُورَ تُوسَدُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



لمن سأله عن السَّاعَةِ: «إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ؛ فَانْتَظِرِ
السَّاعَةَ»^(١).

وهذا كلُّه من انقلابِ الحقائقِ في آخرِ الزَّمانِ، وانعكاسِ
الأمورِ.



التصميم الداخلي للكتاب

Tharwat Sultan@yahoo.com

Tharwat Sultan

للتواصل:  

00201019530152

(١) أخرجه البُخَارِيُّ (٥٩)، من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ.